

الْعُبُودِيَّةُ الْحَقَّةُ

أخى :

العبودية الحققة هى الخضوع والذل : والمعبود : هو الذى يُخضع له ويُذل - والعبادة هى الطاعة والعبد هو الخاضع الذليل الفقير إلى معبوده . والعابد هو الذى يطمع فيما أمره به : طمعاً وخوفاً ورغباً ورهباً فإذا كان العابد لم يقصد بعبادته طاعة ربه لا تكون عبوديته لله تبارك وتعالى : مع صحة العبادة من حيث الشكل والموضوع مثل الرجل يصلى صلاة صحيحة من الناحية الحكمية صلاة مطابقة للشرع من حيث الشكل والموضوع . ولكنه يقصد بها وجه الناس . أى يريد أن يحمد بها ويشكر عليها ، ويعرف بينهم بالطاعة والعبادة ؛ فذلك هو الشرك الخفى الذى يَدُقُ فهمه ، ويشعر نبضه . ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

وقد علمت أخى أن العابد لله حقيقة هو الذى يجرد أعماله وعبادته وطاعته من قصد وجه الغير . فلا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ولا يقرن بنيته حظ نفسه من شهوات وهوى . ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ ومن هنا يتبين معنى الحديث . « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » أو كما قال .

وقد علمت أخى أن النفس بمقتضى طبيعتها تميل إلى لقاء الناس بأعمالها حتى الأعمال الخاصة بالشرعية التى يراد بها وجه الله . وإذا خلصت النفس من الرياء العام ، فربما لا تخلص من الرياء الخاص الذى هو شهواتها وأغراضها . فإنك تحب من يراك يراك متمسكاً بدينك حريصاً على طاعة الله وعبادته . بحيث لو ذكرت بغير ذلك تثور عليك نفسك . وربما تبغض صاحبك لأنه أنقص

قدرك ، ولم يذكر فضلك وهذا نوع من الرياء دقيق . ولما كان التخلص من هذه الحالة أمراً عسيراً فإن الله تبارك وتعالى بمحض فضله ورحمته بعباده يغفر للذنوب جميعاً . وهذا هو السر في ختم الآيات الأمرية (التى فيها أمر) والبيانات التقريرية بقوله سبحانه . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

أخى :

إن الإنسان مهما بلغ من درجات الإيمان واليقين ما عدا الأنبياء والمرسلين لن يكون ولن يبلغ في يوم ما الكمال المطلق كما يتصور للكثير من أمثالنا لأن النفس البشرية مهما خلّصت وصفت ونقت لن يكون لها صفة الملائكية ، ولا صفة العصمة الذاتية . ومن هنا جاء قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فالله سبحانه وتعالى قد وصف لنا حقيقة النفس وصفاً كاملاً دقيقاً ، وذكر لنا مادة تصميمها ، وجوهر ذاتها لئلا يكون الركون إليها والاعتماد عليها ، والغفلة عنها . ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . فهى ملهمة بالفجور وملهمة بالتقوى . وفجورها سابق لتقواها . كما هو شأن الداء والدواء . فالداء هو السبب في سطلب الدواء . ولولا الداء ما كان ثمة داع للدواء . فكذلك فجورها الطبيعى هو السبب في طلب تقواها فهى فاجرة وعلاج الفجور التقوى . وفجورها لا ينفك ولا يزول أبداً . ولكنه يتفاوت حسب صلابة الإيمان وقوة اليقين ولذا قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ولم يقل سبحانه قد أفلح من محاهها أو أذهب فجورها لأن فجورها لا يزول ولا يمحي . إنما قال تعالى قد أفلح من طهرها أى أزال ما يعلق بها من آثار فجورها وأعمالها وذلك بتقوى الله أى الخوف منه الذى يقيك شرورها وفجورها لأنها كما هى ملهمة بالفجور فكذلك هى ملهمة بالتقوى . وحين خلقها الله خلقها وفيها الاستعداد لذلك ، ومن هنا ندرك معنى الأمر بالتوبة التى يخاطب الله بها المؤمنين من عباده . ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿١٠٠﴾ وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ تَشْرِيرُ الْمَصِيرِ .
وهي التوبة الصادقة الخالصة .

أخى :

إننا جميعاً مطالبون بالتوبة غير مطالبين بالعصمة الذاتية لأنها ليست من طبيعتنا كما أننا مطالبون بأن نتلافى الزلّة كلما زلننا وسقطنا . والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . وإدانة النفس معناها حبسها عن شهواتها ، ونهبها عن هواها . ومن معانى الحبس . عدم تمكينها من التلذذ بشهواتها . أى قطع السبيل عليها بالندم والحسرة بحيث تفقد الشعور بالراحة التى بمقتضاها وطلبها لها ارتكبت المعصية . وقارفت الذنب . فالنفس أياها الأخ تتصور الراحة والسعادة فيما تأتى وتذر . فإن تغلبت على صاحبها وأتت المحذور فما على صاحبها إلا إدانتها . ومتى ما أدانها شعرت بالندم . وإذا شعرت به ذهب عنها ما تصوّرت من الراحة والسعادة فتنادى بالخلاص من هذه الورطة حيث سجنّت فى أضيق نطاق وهنا يسهل على صاحبها أن يسوقها إلى المخرج بكل ارتياح فتتقاد طلباً للخروج من هذا الضيق فما المخرج إذا ؟؟ . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ... » الحديث . تمحها من النفس أولاً . وبمقتضى محوها من النفس يكون محوها من صحيفة الأعمال . وهنا تسكن الحسنة فى النفس محل السيئة فيكون الإقبال على الله مضاعفاً . وهذا معنى أن الحسنة بعشر أمثالها حيث الحسنة التى تلى السيئة وتعقبها تجد الموضع طاهراً نقياً . ولذلك تكون خالصة لوجه الله حيث لا حظ للنفس فيها وقد أتها راغبة فى التخلص من ورطتها .

وليعلم أخى أن النفس إن تساهلت معها فى معصية صغيرة أو غفلت عن محاسبتها فيما ارتكبت انطلقت بلا روية ولا هوادة بحيث يتعذر على صاحبها كبتها ورد عدوانها . فالنهي عن الهوى معناها حجزها عن أسباب الخروج والانطلاق . ولا بأس أن أضرب المثل فى ذلك ليكون العلم والبيان : شخص من الناس خاصم آخر وبينهما سوء تفاهم . فإذا ما سمح لنفسه بالاحتكاك حصل الاصطدام . وإذا لم يقف بها فى أول الأمر حصل التسائب والتضارب

والشكايات وما إلى ذلك . فالنهي المطلوب منا إيقافها عند حدها عندما تبدأ فجورها ، وتفجر بصفاتها وطباعها ولأن جبلتها متابعتها هواها . من أجل هذا أمرنا الله باستعمال أقوى الأسلحة في ردّها وإيقافها عند حدها . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ مقامك أيها الإنسان بين يدي ربك . ومقام الله بصفات الألوهية والربوبية فإنه متى ما أدركت النفس أن الله ينظر إليها ويعاين موقفها أرغوت وارتدعت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ فالمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان وينزل فيه . والجنة هي محل الإيواء لكل من خاف ربه أى محل سكنه وإقامته .

ولما كانت الأعمال الصالحة هي التى تأوى المؤمن فى الجنة ذكرت الجنة بدلاً . فالمراد من خاف مقام ربه أوى إلى صالحات الأعمال التى يصاحبها دخول الجنة حيث الإيواء فى المبيت بالمتاع لا بالجوار ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ خاف العبد مقام ربه فسكن إلى ما يقيه من غضبه وعقابه وهى الطاعات والعبادات وصالحات الأعمال ﴿ لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ فالمراد مصاحبة الجنة بالأعمال الدالة عليها ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أخي :

إن النفس بمقتضى طبيعتها تتوهم وتتصور ، فهى كما تتوهم الخير تتوهم الشر والضرر . وقبل كل شئ تتوهم الفقر حيث الشيطان يعدها بذلك . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ .

وللعلم أقول : إن النفس مع كراهيتها للموت لا تُحب أن تتصوره وتتحيله . وهى بهذا لا تعمل له حساباً إلا إذا دنت منها الأسباب كالمرض وغيره وذلك أن الموت حق . ولا بد من ملاقاته طال العمر أم قصر . والنفس تعلم ذلك علماً لا مفر منه . لكنها لا تتصوره ولا تتوهمه ؛ لأن التصور والتوهم يحملان النفس على الاستعداد للموت وعلى ما بعده ، وفى هذا تكليف عليها ومشقة كبيرة لها . كما يترتب على ذكر الموت نهئها عن هواها .

ولما كانت هي مجبولة على الهوى فإنها ترفض كل ما يتعارض مع هواها ولو كان الحق . ومن هنا نعلم سر فرارها من ذكر الموت الواقع لا محالة ؛ ولهذا فهي تفرّ من الضربة العابرة أو الشوكة التي تمسّ اليد لأنها تتوهم الشر والضرر فيما يصيبها في دنياها ولا تتوهمه في آخرها ؛ لأن قرينها وشيطانها أجله معها عند نهاية أجلها من الدنيا ، ولا صلة لها به بمجرد القضاء عليها بالموت . ولذلك يحملها على المحافظة على حياتها الدنيوية لتكون النتيجة واحدة ، والمصير واحداً . ﴿ لَا أَمَلًا نَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ . وَمِمَّنْ بَيْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وسر عداوة النفس والشيطان موقف إبليس عندما خلق الله سيدنا آدم عليه السلام وأمره بالسجود وامتناعه عنه حقداً وتكبّراً . ألا قاتل الله النفس والشيطان المفسدين لحياة المؤمن . حفظكم الله ورعاكم وأيدكم بتوفيق من عنده .

* * * *